حوار أم صراع الحضارات؟

الأستاذ الدكتور مصطفى شريف،

الاتفاقيات الدولية والبيانات حول رفض وعدم التسامح، وشجب التمييز، وتحري ثقافة السلم. خاصة على أساس التعليم والإعلام في تزايد. هناك إعلان عن أيام، وسنوات، وعشريات حول المواضيع ذات صلة بحوار الحضارات، مثل اليوم العالمي من أجل السلم وهو يوم 21 سبتمبر، ويوم 21 ماي إحياء للتنوع الثقافي والحوار والتطور ويوم التسامح في 16 نوفمبر، ويوم التضامن الإنسان في 20 ديسمبر و اليوم الدولي من أجل العيش في السلم سويا في 16 ماي

في عالم متسم بالتوترات والنزاعات والعنف منذ قرابة عشرين عاما فإن المجموعة الدولية تولي اهتماما على الصعيد الرسمي إلى حوار الحضارات وإلى الثقافات الدينية. أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 2001، سنة الحوار بين الحضارات وتم التصويت على الإعلان العالمي على الـ UNESCO حول التنوع الثقافي وعشرية دولية لترقية ثقافة السلم وعدم العنف لصالح أطفال العالم. في سنة 2005 أسست منظمة الأمم المتحدة هيئة التحالف Alliance بين الحضارات. في سنة 2010 تم الإعلان على السنة الدولية للتقريب بين الحضارات، فميثاق الأمم المتحدة والإعلان عن إنشاء اليونيسكو متبوعا بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان منذ 70 عاما، تتضمن مبادئ الحوار بين الحضارات.

الإعتماد على النفس

لا شك أن عبارة "حوار الحضارات" قد تقادمت وأن استعمالها قد يخلو من المصداقية، فيمكننا التساؤل: ما إذا لم تكن في صالح مشاريع تهدف إلى تبرير السيطرة التي يحكمها قانون المركزية المتزايدة للثروات وأدوات القرار؟ إنه لمن المنطقي سماع بأنه ينبغي تغيير ميزان القوة ليتأتى الإصغاء. فالرد على كل من يشفع بالحضارة هو الإعتماد على النفس، إنتاج الثروات المادية واللامادية، تشييد بلادنا والدفاع عنها وتطويرها وتكوين مواطن مثقف ومسؤول.

فاليوم، رغم امتلاكها للإمكانيات، فإن جزءًا من المجتمعات الإسلامية تعيش تحت نظم يعوزها بعد النظر،

بادية عليها علامات الفقر، ما يقارب 30٪ من شعوبها أمية، ، ومن جهة أخرى تمايزها وقدراتها، فالمجتمعات العربية الإسلامية تستورد 97٪ من حاجياتها التكنولوجية و70٪ من احتياجاتها الغذائية والصحية وتستثمر إلا في حالات نادرة أقل من 05٪ من دخلها القومي في البحث العلمي.

من جهة أخرى، تتحدث قوات الشمال عن حوار الحضارات والتعاون ولكنها ترفض الآخر، تتدخل وتمارس إضعاف المساعدات تجاه الجنوب، بمعدل نسبة زهيدة تصل 2٪ مقارنة بالحجم الإجمالي. وهي أقل بثلاث مرات من الوعود وعشر مرات أقل مما يرجى، على خلفية أن التقدم التكنولوجي العلمي يستغل أيضا لزيادة التبعية، الهيمنة، المراقبة، والردع، أخو أرويل الكبير.

فهم العالم الراهن

أمام هذا الكم من اللامساواة، هل بقي شيء يصدق بشأن حوار الحضارات؟ لا مجال للشك في ذلك، لأن جميع المشاكل تطرح في وقت واحد في نمط حياة معولم، فلا أحد يستطيع حلها في معزل ولا العيش منفصلا عن العالم. ما من شيء جوهري يمكن فعله من دون نمو داخلي وحوار مع المجموعة الدولية، فالمصير مشترك. مناصرو صراع الحضارات لم يفلحوا، رغم قوتهم، فالتحاور هو الخروج من الحيز المظلم، فهم العالم المعاصر، السيطرة على رهاناته السياسية، الثقافية، التكنولوجية، الاجتماعية والبيئية ليصبحوا على بصيرة من الأمر.

نظرا للفوضى، عدم الاستقرار والشكوك فإن العالم أصبح تواقا لثقافة السلم، بحسب اليونيسكو، فإن ثقافة السلم تعرف على أنها مجموع القيم، والسلوك، وأنماط الحياة التي تنبذ العنف وتتحسب للنزاعات باجتثاث أصولها عن طريق الحوار والمباحثات بين الأفراد، الجماعات والبلدان.

وغير أن الفاصل بين النظري والتطبيقي يعد معضلة، إذ ينبغي أن يُحاط رهان الحوار بين الحضارات علميا. إذا ما أردنا المضي قدما بقضية السلم التي هي محل تشكيك. فالمؤرخون، وعلماء الاجتماع، ومختصو علم الإنسان يواجهون عقبات من أجل الاتفاق على تعريف للحضارة. هناك تيارات فكرية تدعي امتلاك الحضارة وترفض الغير في عالم البربرية، حيث لا يتلاءم من هو غريب عن مفهومهم للتطور.

الحضارة في أزمة

فإذا ما أخذنا في الحسبان تحليل المفكرين المسلمين أمثال ابن خلدون والسيطوي والمفكرين الغربيين أمثال هيڤل، طونيبي، ولويس شتروس، يمكننا القول بأن الحضارة تبنى على ثلاث مواصفات أساسية:

1ـ مفهوم لمعنى العالم، العلاقة بين الزمان والمكان.

2ـ المكانة التي تمنح إلى العقل ووظيفة المنطق.

3ـ القدرة على وضع قواعد سياسية، اجتماعية، واقتصادية عادلة. إضافة إلى أنه لا توجد حضارة منحوتة من صخرة واحدة، منزوية ومستقلة، فالحضارات مركبة متداخلة إلى جانب عبقريتها التي تنفرد بها.

فما هو الوضع اليوم بشأن الحضارة العصرية؟ فالوضع لا يُرجى تداركه، العالم يعيش نهاية حضارة. مفكرون

أمثال جاك بارك وإدڤار مورين يعتبران بحق بأن العصرنة وعلى الرغم من الاكتسابات المذهلة لم تهتد إلى إنشاء حضارة عالمية، والواقع هو واقع أزمة متعددة الأشكال ودائمة. وفي هذا السياق يعد البحث عن كبش الفداء طريقة قديمة، في حين أننا نعيش في قرية عالمية، إضافة إلى أنها مرقمنة حيث كل شيء يحدث في حينه، مترابط ومتداخل، وتزداد صيغة إدعاء الاصطدام بين العالم الإسلامي والعالم الغربي حدّة. وقد تكون السياسة امتدادا للحرب تحت أشكال جديدة.

قبل 11 سبتمبر 2001، ومنذ 1989، سنة سقوط حائط برلين ونهاية الحرب الباردة، أصبح العالم الإسلامي ينعت علانية من طرف المسيطرين على النظام العالمي على أنه التهديد الجديد. هذا التموقع الاديولوجي والجيوستراتيجي يخلق اضطرابا في العلاقات الدولية، وتتم إعادة التشكيلة وفق المصالح. فبدلا من احترام منطق حوار الحضارات فهي تنتظر نفسها في حضارة خاصة. مجموعة مكثفة من الأحكام المسبقة ضد الشعوب الإسلامية المطروحة على محك أشد الصعاب. وبالتالي تأتي الدعاية لصدام الحضارات.

باتت الهجمات اليوم على الجبهات. والمراجع المؤسسة للإسلام صارت متهمة على أنها مسببات العنف والتخلف، استغلالا للوهن الداخلي للمجتمعات الإسلامية، ولا سيما القراءات العشوائية للإرث، جاءت الهجمات المبنية على الخلط عنيفة، ساخرة ومتعددة في تهجمها على القرآن والسنة بغية ضرب استقرار المسلمين، وهو ما يمكن تعريفه بالحصى الرملية التي بمقدورها إيقاف النظام العالمي المهيمن.

ثالثا، يُعد الموقع الجيوستراتيجي للعالم العربي الإسلامي وثرواته الطبيعية محل أطماع. فالمنظرون للنظام العالمي يضاعفون من الصور الإنتقاصية لفرض نظرتهم بشأن العلاقات الدولية، فمفهوم "الدولة السوقية"، ينظر إليها على أنها مناهضة يصعب كبحها، يُقابلها مفهوم "الدول المهمشة" (خارج الطريق الصواب) الذي يشير إلى الدول التي تتخلى عن واجباتها. عندئذ تسترسل الإجراءات العنيفة:

1ـ الاجتثاث، العزل بشكل أحادي أو متعدد الجوانب.

2ـ تغيير النظام السياسي بالقوة.

3ـ مفاوضات وضغوط لجلب البلدان المستهدفة في فلك التفوق الأروبي. في جميع الحالات، ينعتون أية دولة مقاومة بالمنحرفة، وهو يؤدي تناقضا بالزعماء إلى الاستمرار في المواقف العدائية. وسط هذه الاستراتيجية الجيوسياسية لمشروع الهيمنة الشاملة تلصق صورة البشاعة بالإسلام ويستعمل كأداة تحريك، ومشاتل خصبة ناقلة لإديولوجيات معينة.

إن المنظرين لدعاية صراع الحضارات يزعمون الخبرة لأنفسهم. صامويل هانتنغتون، مع كتابه الشهير "صراع الحضارات" الذي صدر سنة 1996 بهارفارد، ، يعد الصورة الرمزية مع نصوص أخرى في الجيوسياسية، تقوى هذه الاديولوجيا، مثل "نهاية التاريخ" لفراسيس فوكو ياما الذي صدر سنة 1992، "الإسلام في أزمة" لبارناد لويس، سنة 2002 "رقعة الشطرنج الكبرى" سنة 1997 لزبينياف برزانكسي وحتى آخر كتاب "النظام العالمي" الصادر سنة 2014 لهنري كيسينغر الذي تناول فيه مجددا خطوط الترويج لـ "صراع

الحضارات"، ويتعلق الأمر بالتفوق والاستعلاء على الامبراطوريات القديمة العظمى مثل الرومانية والصينية والمغولية، لأنه يراد للنفوق أن يكون شاملا: عسكري، اقتصادي، تكنولوجي وثقافي.

من خلال هذا السياق، فإن الوضع مؤثر، رغم وعي ونية الشعوب الحسنة ورغم المساعي الحميدة للأمم المتحدة واليونيسكو، والسلطات الدينية من مختلف الديانات، وشبكات المجتمع المدني عبر العالم، فإن كل مصمم لجعل الحضارات متعارضة وتشويه الحقيقة للعالم الإسلامي. صناعات ثقافية، شبكات سياسيين، وسائل إعلام ومثقفون على شاكلة هانتقتن، يمارسون الخلط ويمزجون بين القاعدة وما شذ عنها. لا صلة لخطابهم بالمعرفة الموضوعية. فهو يغتاب مثله مثل كل النصوص الدعائية، وهو يعمل من منطلق تخويفي قائم على الأحكام المسبقة والأكاذيب بنية تحقيق أهداف جيو سياسية.

إن نظرية صراع الحضارات تدعي أنها ترسم الأوضاع، ثقافية وجيوسياسية معقدة، ولكنها لا تولي اهتماما إلى الأحداث من وجهة نظر خارجية، باختصارهم لتطور العناصر الثقافية والسياسية إلى أقصى درجة، وعلى وجه الخصوص الإسلام، فإن الفاعلين الموافق الغامضة للقوة الأولى تجاه التطرف العنيف والمشاكل الحقيقية، فهم يتظاهرون بأنهم يجهلون أسباب المشاكل . ومن واجبنا جميعا التصدي لها بكل ثبات، تحسبا وبصيرة بالتنسيق مع ذوي النوايا الحسنة

***أستاذ مصطفى شريف**